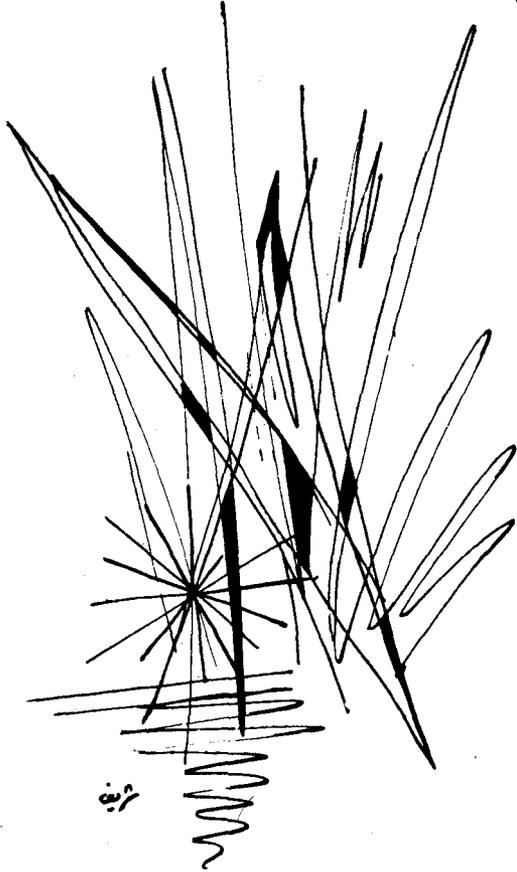


الضبيع والأرنب

قصة بقلم شفيق الرايس



زاوية مشهورة في البلد ، من يدري اي جيل خصصها لتلقي الضبيع بالحيضة .

وفجأة وجدنتي ارتجفت تحت يد وضعت فوق كتفي . التفت ... هو الشرطي السري الذي كان يراقبني . قلت لنفسي : « انفضحنا وانتهى الامر » . لكن الرجل قال : اتبعني ، فتبعته مثل نعجة . وبقيت امشي خلفه حتى شملتنا عتمة شارع ضيق فوقف فوقفت . قلت له : كم تريد ؟ .. وانا اقصد ان ارشوه لعله يفك اسري من فضيحة اكيدة . ولكنه اجابني : « حسب المرأة التي تريد » . فقلت في نفسي : « اذن وصلنا .. حضرته قواد وليس شرطيا » . ثم تابعنا مسيرنا معا وتحدثنا طويلا .

لقد شرحت له قضيتي فتفهمها احسن الفهم . وفي الوقت ذاته تفضل حضرته فشرح لي سبب القحط الذي اجذب الزاوية العريقة من زبائنها . ذلك ان الحكومة ، على ما يبدو ، اصدرت قانونا رهيبا لمكافحة البغاء وقطع دابره ، وهو قانون رهيب فعلا اذ ان احكامه اشد قساوة من احكام قانون خيانة الوطن ، هذا علاوة على ان من يحصده قانون خيانة الوطن مرة قد يغادر السجن الى كرسي الحكم احيانا ، بينما يظل من حصده قانون مكافحة البغاء مرة اسير سجلات

تمر (1) على الانسان لحظات شاذة يتقلب فيها الى ضبيع صار ، بصراحة يصبح الانسان الثقاف المهذب وغدا دنيئا يشمشم روائح الجيف ويتلصص الاعراض الرخيصة ليفور في قذاراتها . يحدث كل ذلك في لحظة مفاجئة . وانا لا اريد ان ابنيكم بقراءة محاضرة في الاخلاق ، اذ لن تنفع في الاخلاق قراءة ، وانما اريد ان اروي لكم بصدق ماحدث لي اول امس . فقد خضعت لشروط الضبيع مترصد الجيف ، ووقفت في عتمة المساء تحت عمود كهرباء معين ، في زاوية شارع خاص ، ارتجفت تحت سياط شيق ملح غامض ، ماهو بالشيق والشهوة الجنسية بقدر ماهو هيجان لعين يبد كل مالدي من قدرة على التمييز والمحاکمات المنطقية وكنتم مافي نفسي من بوادر اخلاقية كانت تجاهد ان تصرخ فيخنقها . باختصار : كنت انتظر ان اتصيد امرأة ولا يهمني شيء .

والغريب انني اندمجت في النزوة النارية اندماجا كاملا . حتى انني اصبحت ارى كل مظاهر الدنيا من خلال « القضية » التي انسا واقف هنا ، في هذه الزاوية المشبوهة اعالجها . كأنني اصبحت ارى الاشياء رؤية اخرى ، هذه البنابات ، والشارع . هؤلاء الناس كلهم يصلحون للضبيع . « نعم ابحت عن جيفة » واصرت بعناد على ان ما ابيه قدر ولكنني اريد ان اتابعه حتى النهاية .. وكانت الباصات تمر امامي كأنها هي علب تجريدية محشوة بلحوم بشرية رطبة لزجة مغرية . ولم اشعر بحرج او اضطراب الا مرة او مرتين ، عندما عبر الرصيف المقابل رجل يعرفني جيدا - كان صباح اليوم يتوسل الي ان اسمى لتوظيفه في اية وظيفة - ، فالتفت انا الى الناحية الاخرى . وكذلك مر بجانبني رجل خشيت ، من هيئته ، ان يكون من جماعة الشرطة السرية التي كلفها المجتمع بحراسة الاخلاق ، فقلت لنفسي : « لم يبق علينا الا ان يصنف اسمنا في اضبارة خاصة في سجلهم » فسرت بضعب خطوات امامه ، واوهمته انني انتظر انسانا ما عند موقف الباص ، ثم عدت الى موقفني تحت عمود الكهرباء مصرا عينيا اكاد اصرخ : « اريد امرأة » . ولو ان رجلا فاضلا سألني بروح ابوية : « هل تعاني من سياط جوع جنسي يا ولدي » ؟ ، لاجبته : « لا .. فانا شعبان ، ولكنني هكذا ، نكاية او نزوة ، اريد امرأة » . ولقد ادرت الموضوع في رأسي بعد ذلك وقتلته بحتا كما يقولون ، فنتبين لي انها ليست قضية جوع جنسي او شبع او نزوة او ما يشبه ذلك من التعليلات التي يمكن التحدث عنها بصيغ كلامية واضحة ، وانما هي حالة غريبة لا بد من ان يصاب بها الانسان المهذب المتمدن ، حصيللة ملايين السنين من النمو الاخلاقي والتهذيب الحضاري ، وآنذاك يعود الى حالة انسان عصر ما بعيد في اغوار الوحشية . لقد كنت تلك الليلة مجنونا ، تصورا انني يعد ان طال بي الوقوف في الزاوية المشبوهة كدت اعترض سبيل سيدة او اثنتين كنت واثقا من انهما ليستا غرضي .. والعناية الالهية وحدها الجمعتني اخر لحظة . فعدت ابصمص في كل اتجاه « لا بد من ان تمر واحدة منهن امامي ، فهذه

(1) يلاحظ من اسلوب القصة ، وموضوعها ، انني لست كاتبها . وانما ينحصر دوري في نقلها من يد كاتبها - وهو رجل شديد الهمية فسي المجتمع - الى يد قارئها ، يحييني الشعار القائل : ناقل الكفر ليس بكافر .

فقال الرجل الذي رمينا حجرا اسود في بحيرة امته اليلورية :
ولكن .. ولكن الوقت متأخر جدا .. كم الساعة الان ؟
اجابه الثاني : هذا لا يهمك .. أين المرأة ؟
فقال زوجها : «ولكنها نائمة .. في عز نومها » . وكانت كلماته
مضطربة مرتجفة . كاني شعرت به يتوسل الى الثاني الذي لا تؤثر
الانفعالات - وخصوصا العطف - على تجاعيد سحنته : « ارجوك .
اتوسل اليك . اقبل يديك اعف عنها .. نحن لا نريد ان » . لكن
الرجل اليابس قال بلهجته الحاسمة : « اوقفها حالا » ثم التفت
الي وسحبني من يدي « تفضل يا استاذ » ودفع زوجها من الباب
بيده الاخرى فدخلنا . وقادني الي مايشبه غرفة استقبال ضيقة
واشعل النور - كان السقف واطنا - . وقال : « تفضل .. خذ
راحتك » ثم امر زوجها : « قلت لك اذهب ابقظها حالا . » لكن
زوجها لم يتحرك بل كان لا يزال جامدا كالخوذ . مما دعا الرجل
العظيم لان يتهض فيقوده بلطف الي غرفة مجاورة ، وهناك اخذا
بتهامسان .

في الواقع هنا تبدأ قصتي . كانت الحجرة - على ضيقها -
منسقة نظيفة ، مما زاد في كآبتي . وكان ثمة وردة ذابلة في كأس ،
وهمهمة مكتومة في الغرفة المجاورة . اما عندي فلم يكن ثمة غير
هذه المقاعد الصامتة والوردة و .. رفعت رأسي الي اليمين
وجدت صورة « العروسين ليلة الزفاف » . كان زوجها يتسم ، ولن
اتحدث عنها هي . وكان بجانب هذه الصورة التذكارية اطار كبير
يحيط بوثيقة اجتماعية رهيبية تنص على ان زوجها مجاز في الآداب
من جامعة « ... » . واوشكت انهض مسرعا نحو الباب اريد ان
اهرب . لا شيء يدركه عقلي . وفعلا نهضت عن الاريكة . لكن عيني
وقعت على امرأة بقميص النوم ، كانت واقفة بالباب تنظر الي الارض
باستحياء . فسقط الصبح على الاريكة وقد اصبح كلبسا مبجوح
الحجرة . كنت ارتجف . اما هي فقد ظلت واقفة امامي لحظات
ثم قالت :

- قالوا لي ان ارحب بك .
ثم تشاءت غصبا عنها . فقد كان النوم لا يزال عميقا في عينيها .
ظلت مطرقا في الارض ايضا .. كنت انظر الي اصابع يدي
المتشابكة بارتخاء تام في حضني . لا شيء يدركه عقلي . كانت
اصابعي حيوانات غريبة متعاقدة ، عقدة عقدة ، وكان في كل اصبع
منها حيوان غريب صامت . كل شيء صامت .
قالت المرأة ، وصوتها صوت بنت بيت خجول : هل تسمح لي
بان اجلس بجانبك ؟

لم اعرف بم اجيبها ؟ كنت في دوامة . وعرق بارد اخذ يتسلل
من تحت كم قميصي ويجري فوق اصابعي المتهالكة في حضني . كان
ثمة شيء ما يشبه الحزن ، يشبه غصن آس ، يشبه سكاكين حادة
تتقاطع في احشائي . ولم اجرؤ على ان احرك رأسي اية حركة .
على ان المرأة تقدمت وجلست بجانبني على الاريكة الطويلة ، مما
جعلني اطمئن قليلا .. وبقينا صامتين . اظننا كنا نشبه تمشالي
خطيئة ناقصة . وفيما بعد ، حين ادرت القضية في رأسي ، وجدت
اننا كنا في هذا الموقف نعيش ندما عجيبا لكنه ندم خالص رائع
في صفاته .. لم يدوم ذلك اكثر من لحظات . لكنها كانت لحظات
ثقيلة مليئة .

قالت : اصبح البيت فارغا ..

لم اتحرك .

ثم قالت : خرجوا .. ذهبوا الي السطح من نافذة الغرفة .

لم اتحرك .

ثم قالت : هل اعد لك مشروبا؟؟ .. قالوا لي انك تريد عرقا .
كانت كلماتها معجونة بتشاؤب ناعس . اما انا فقد كنت احاول ان

ونزوات رجال الشرطة الاخلاقية الي الابد ، دعكم من لعنة المجتمع .
ثم قال الرجل : اذا كنت تريد ان تتحاشى الفضيحة فاطلب
بضاعة عالية .

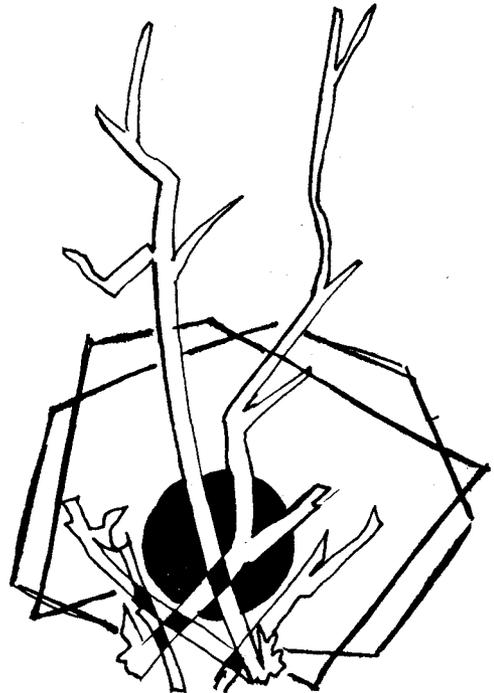
قلت : ان ما اطعم به هو البضاعة العالية ، ولا تهمني التكاليف .
قال : نحن اليها ساترون .

والتفت الي الرجل اتفحصه من طرف عيني . كان رجلا عظيما .
اعظم ما فيه انه مؤمن بعملة ايمانا مخلصا ، دون داع لبحث الاسباب
او التفاصيل . كما ان له ميزة اخرى تمنيت ان يكون لدي بلطف
حادة اشق بها رأسه اكراما لها . ذلك انه رجل يحول بين التعابير وبين
معالم وجهه ، فهو - اي وجهه - في كل الانفعالات والهيجانات وجه
واحد . وخصوصا في الحالات التي تعنتت القلب عطفًا او شفقة
فانه يظل وجهها ساكنا ، اية عضلة في سحنته لا تتحرك . وقلت في
نفسي : « هذا رجل يفهم كل شيء » . ثم قال حضرته : « وصلنا ..
تفضل من هنا » . وصعد امامي درج بنائية عالية وصعدت خلفه .
وبقينا نصعد ونلهث حتى وصلنا الي ذلك النوع من البيوت الذي
يسمونه ملحقا . ففرع الجرس . واخذت اصور لنفسي شكل المرأة
التي سوف تفتح لنا الباب . « لا شك انها حورية من حوريات
الجنة .. ليتني شريت عرقا اكثر » .

قال الرجل الذي لا سحنة له : « عندهم ايضا ما تشاء من
المسكرات . وبرادهم مليء بالوان المازة » . فسألته مستغربا : من هم؟
قال : « المرأة وزوجها » . ثم قرع الجرس مرة اخرى وتابع
حديثه : « انت تريد العنب ام الناطور؟؟ . لا توجع رأسك بالاسئلة » .
قلت : بل اريد ان اعرف حقيقة هذين الزوجين ، مشكلتهما ؟
قال : اعتقد بان موفقك لا يسمح لك بان تبحث .

فهزرت رأسي موافقا . وفي الوقت ذاته بدأت اشعر بان ضباب
حالي الهيجانية اخذ يشف حول رأسي كأنما انياب الصبغ اوشكت
تذوب . وتشتت نفسا عميقا واحسست بحاجة ملحة الي سطل ماء
بارد يراق فوق رأسي : « المرأة وزوجها؟؟»

وفتح زوجها الباب .. كان يفرك عينيه ، وكانت هيئته تدل
على انه غادر السرير توا . كان مسحوبا الي الاهانة من صلب
طمأنينته . لكنه نظر الي الثاني وقال : نعم!!
فقال الثاني الذي لا سحنة له : اونلعب؟! تريد ان ندخل .



الأخبار

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ - تلفون ٣٢٨٣٢

الإدارة

شارع سوريا - رأس الخندق العميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان

او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجننتين : ١٥٠ ريبالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

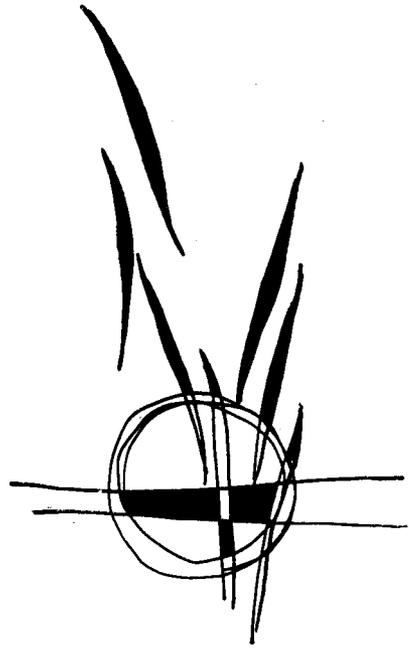
الإعلانات

يتفق بشأنها مع الإدارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣



اجبر رقبتي على ان تتحرك قيد انملة .. رايت يدها . كانت يدا
نحيلة بيضاء لاطية فوق ركبتيها .. كانت يد انسان ، رفيعة ، هشة .
وكانت اصابعها نحيلة طويلة ايضا . وشعرت بانني ادخل هالة
رائحتها الخاصة . وشعرت بانني اطا حرمة هالة مقدسة تخص انسانا
ما ، واعيت فيها . وارتجفت كما لو مسني تيار مفاجيء . وفي الوقت
ذاته غمرني احساس كامل بالالفة . كأنما انا عشت مع هذه المرأة
قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة الاف سنة . الا ما احدى اطمئنان
الطفل ورأسه على صدر امه ... ثم وجدنتي افرك شفتي السفلى
واعضها . لكنني لم استطع التقلب على دعمة نفرت من عيني . كانت
دمعة باردة بطيئة .

قالت المرأة التي في صوتها بنت بيت خجول : اذن ماذا تريد ؟
كم كنت اتمنى ان ارحل وانطلق في الشوارع حرا حريصة
فعلية .. صممت . شددت من عزيمتي ، ضغطت على عضلات ساقي ،
ثم وقفت ووضعت تحت كاس الورد الذابلة ورقة مالية من فئة
كبيرة ، وتوجهت نحو الباب ، وكدت انطحه لانني لا ازال اخاف
ان اراها . وحين فتحت الباب وجدنتي انطلق كالسهم وانزل الدرج
مثل مجنون ملاحق بمائة عصا . كانت افواه سوداء مفزعة تلاحقني
وتترصدني في منعطفات هذا الدرج المظلم الحالك . وبقيت انزل
بسرعة ثم اركض . وفي الشارع ركضت ايضا وبقيت اركض وانلقت
خلفي . اذ ربما لاحقني الرجل العظيم الذي لا تؤثر على سحنه اية
رجفة بشرية ، وربما امسك من رقبتي وارجعني الى بيتها غضبا .
واشرت لاول سائق تكسي . ودلقت الى سيارته واغلقت الباب
بشدة وقلت : بسرعة .

قال السائق : الى اين ؟

قلت : بسرعة الى اقصى مكان يمكنك ان تصل اليه .

قال : فهمت عليك .

واوصلني الى اقرب خمارة .

شريف الراس

دمشق

الصورة بريشة كاتب المقال